المحاضرة الرابعة:

علاقة اللفظ باللفظ:

1 ـ العلاقة بين صوت الكلمة ومعناها:

لقد تفطن علماء العرب إلى أن اللغة ظاهرة صوتية أولا، ودرسوا الأصوات مخارجها وصفاتها بالتفصيل، كما نظروا إلى دلالة الحرف وعلاقته بالمعنى، ولمحوا فيه قيمة تعبيرية موحية، فليس هو مجرد صوت وحسب، ولكنه يحمل في ذاته إشارة إلى معنى خاص يستقل به، وسواء كان هذا الحرف في أول الكلمة أو وسطها أو آخرها، ومن الأمثلة على ما وقع في أول الكلمة ودل على معنى ما[1]:

في أول الكلمة: صعد وسعد، فالاختلاف هنا بين الصاد والسين، فالصاد أقوى من السين، لذلك استعملت في صعد من صعود جبل أو جدار، مما يُرى ويُشاهد، والسين أضعف فاستعملت في سعد، وهو أمر لا يظهر ولا يشاهد حسا، ومع ذلك ففيه معنى صعود الجَدّ لا الجسم.

ومن الأمثلة أيضا: خضم وقضم، فالخاء لليونة والقاف للصلابة واليبس، والخضم معروف لأكل الرطب كالقثاء والبطيخ، أما القضم فهو لأكل الصلب واليابس، نقول: قضمت الدابة الشعير.

في وسط الكلمة: مثل قصْم وقسْم، فالصاد أقوى من السين، والقصم معه الانفصال فهو أقوى من القسم، لذلك خُصّت الصاد بالأقوى والسين بالأضعف، ومثل الوسيلة والوصيلة، فالوصيلة أقوى معنى من الوسيلة، لأن الوصيلة من الصلة أو الاتصال، والشيء المتصل بآخر هو جزء أو بعض منه، بخلاف ما يُتوسل به إلى الشيء فليس جزءا منه، وما دامت الصاد أقوى من السين فقد جعلوا الصاد للمعنى الأقوى، والسين للمعنى الأضعف.

وفي آخر الكلمة: مثل نضح ونضخ، فالنضخ أقوى من النضح، كالخاء أقوى وأغلظ من الحاء، وفي التنزيل: (فيهما عينان نضاختان).

ولابن جني كلام نفيس في علاقة الصوت بالمعنى، ضمّنه في كتابه الخصائص، حيث عقد بابا فيه سماه "باب في إمساس الألفاظ أشباه المعاني"، جاء فيه: «فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج متلئب عند عارفيه مأموم. وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدّلونها بها ويحتذونها عليها. وذلك أكثر مما نقدّره، وأضعاف ما

[1] يُنظر: دراسات في فقه اللغة، ص143.

نستشعره»[1]، ومن عجيب ما تفطن له ابن جني اختيار الحروف في الكلمة بدقة متناهية، تتبعا للأحداث التي تعبر عنها الحروف ومراعاة لترتيبها، يقول: «ومن وراء هذا ما اللطف فيه أظهر، والحكمة أعلى وأصنع. وذلك أنهم قد يضيفون إلى اختيار الحروف وتشبيه أصواتها بالأحداث المعبر عنها بها ترتيبها، وتقديم ما يضاهي أول الحدث، وتأخير ما يضاهي آخره، وتوسيط ما يضاهي أوسطه، سوقا للحروف على سمت المعنى المقصود، والغرض المطلوب»[2].

ويضرب ابن جني أمثلة عن ذلك، منها قولهم: بحث، فالباء تشبه خفقة الكف على الأرض، والحاء تضاهي غور مخالب الأسد وبراثن الذئب في الأرض، والثاء تشبه البث في التراب، وهذا أمر مشاهد محسوس، ونظير ذلك في: شدّ، وجرّ[3].

ومما لاحظه أيضا اختصاص حرف ما بمعنى يوحي به عندما يجاور حروفا أخرى، من ذلك حرف الفاء إذا اجتمعت بالدال والتاء والطاء والراء واللام والنون، فإنه يدل على الوهن والضعف ونحوهما، فنقول: الدالف للشيخ الضعيف، والطنف لما أشرف خارج البناء، وهو إلى الضعف، والدنف للمريض، والطرف، والفرد، والفتور، والرديف، والطفل، وغيرها[4].

ومن الجدير بالذكر أن ابن فارس أيضا بنى كتابه مقاييس اللغة على هذا الأصل، وهو ردّ أحرف الكلمات إلى أصل دلالي تجتمع عليه، يقول مثلا في مادة (جن): «الجيم والنون أصل واحد، وهو الستر والتستر، فالجنة ما يصير إليه المسلمون في الآخرة، وهو ثواب مستور عنهم اليوم، والجنة البستان، وهو ذاك لأن الشجر بورقه يستر...والجنين: الولد في بطن أمه، والجنين: المقبور. والجنان: القلب، والمجن: الترس، وكل ما استتر به من السلاح فهو جُنة، والجُنة ما اتقي به..»[5].

وليست هذه الصفة مما تختص به الحروف، وإنما تتصف بها الحركات أيضا، ومن ذلك توالي الفتحات في صيغة فَعَلان، نحو: نقزان، غليان، غثيان، جريان،..فإنها تدل على الاضطراب والحركة، «فقابلوا بتوالي حركات المثال توالي حركات الأفعال»[6]، ومنها أيضا صيغة فَعَلى في المصادر والصفات مثل: البشكى (امرأة بشكى أي سريعة خفيفة)، والجمزى (نوع من العدو)، والولقى (العدو الشديد)،..فهي تدل على السرعة.

---

[1] الخصائص، ج02، ص157.
[2] المصدر نفسه، ج02، 162.
[3] يُنظر: المصدر نفسه، ج02، ص163.
[4] يُنظر: المصدر نفسه، ج02، ص166 وما بعدها.
[5] ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ص421.
[6] الخصائص، ج02، 152.

وأما من حيث الكلمات فهناك روابط طبيعية بين أصواتها وما تدل عليه، وأساس هذه الروابط هو محاكاة الأصوات للظواهر التي تعبر عنها، من الإنسان والحيوان والأشياء[1]:

فمن الكلمات الدالة على أصوات الإنسان: القهقهة، والدندنة (وهي الكلام المسموع غير المفهوم)، والضوضاء (الأصوات المختلطة)، والصراخ، والزفير، والشهيق، والهمهمة، والتأوه، والحشرجة، والفخيخ (الصوت الضعيف للنائم)، والغطيط (صوته القوي)، والشخير، والفرقعة، والغرغرة، والقرقرة (صوت يخرج من الأمعاء)، وغيرها.

ومن الكلمات الدالة على أصوات الحيوان: رغاء الناقة وبغامها، هدير الجمل وقرقرته، وصهيل الفرس وضبحه إذا عدا وحمحمته عند الجوع، وشحيح البغل، ونهيق الحمار، وخوار البقر، وثغاء الشاء، وزئير الأسد، وعواء الذئب وتلعلعه عند الجوع، ونباح الكلب وضغاؤه إذا جاع ووقوقته إذا خاف وهريره إذا كره شيئا، وضباح الثعلب، ومواء القط، وزقزقة العصفور، وصرصرة البازي، وقعقعة الصقر، وهديل الحمام، وشجع القمري، ونعيق الغراب، وفحيح الحية بفمها وكشيشها بجلدها، ونقيق الضفدع، وطنين الذباب، وغيرها.

ومن الكلمات الدالة على أصوات الأشياء: خرير الماء، والنشيش (هو صوت غليان الشراب)، والشخب (صوت اللبن عند حلبه)، والحسيس والمعمعة (صوت النار)، والأزيز (صوت المرجل عند الغليان)، وهزيم الرعد، وجعجعة الرحى، وصرير القلم والباب، وخفق النعل، وغيرها.

ومن الكلمات الدالة على أفعال الإنسان وغيره: القطع والقطف والقطم والقضم والقط والقد، والفري والفرز، والكسر والدق والقرع والهد، والأز والهز، و «قد لوحظ أن المعنى في كثير من هذه الأفعال وما إليها يتوقف على صوتين فقط من أصوات الفعل الثلاثة وأن الصوت الثالث تقتصر وظيفته على تحديد هذا المعنى العام وتوجيهه وجهات خاصة، فالمعنى العام للتفرقة مثلا يؤدى في العربية بصوتي الفاء والراء، ويضاف إلى هذين الصوتين صوت ثالث يشار به إلى نوع التفرقة والمادة التي حدثت فيها: فرى، فرم، فرض "فرض الخشبة حزها"، فرص "للفضة"، فرث "للكرش وما إليه"، فرج، فرق، فرز..الخ، ...والصوتان اللذان

[1] يُنظر: فقه اللغة لعلي عبد الواحد وافي، ص136.

يدلان على المعنى العام في هذه الطائفة من الأفعال يمثلان في الغالب، في صورة ما، صوت الفعل، أي ما يحدثه الفعل نفسه من صوت عند وقوعه»[1].

وفي هذا السياق تحضرنا مقولة ابن جني نقلا عن الخليل بن أحمد الفراهيدي: «قال الخليل: كأنهم توهّموا في صوت الجندب استطالة ومدا فقالوا: صرّ، وتوهّموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر»[2]، ولعل الكلمات المذكورة آنفا هي على هذا المثال، فإن للطبيعة أثرا في تشكيل لغة الإنسان، وفق نظرية المحاكاة الشهيرة في تفسير نشأة اللغة، والتي تنص على أن اللغة نشأت من محاكاة الإنسان للأصوات التي يسمعها من الحيوانات والأشياء، والأصوات التي تصدر من الأفعال عند وقوعها، وكل لغة هي مشتملة على كلمات من هذا القبيل، تدل على الأصل الأول الذي انحدرت منه اللغات.

[1] المرجع السابق، ص137.
[2] الخصائص، ج02، ص152.